فصلية اللسان المبين(بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكّمة)
السنة السابعة، المسلسل الجديد، العدد الثالث والعشرون، ربيع١٣٩٥، ص ٩١-٧٣

# رمزية الليل في الأدب الجبراني *

**صادق فتحي دهكردي**، أستاذ مساعد بجامعة طهران،فرديس فارابي
**عبير جادري**، طالبة الدكتوراه بجامعة طهران،فرديس فارابي

**الملخص**

يعتبر جبران من رواد المدرسة الرمزية بامتياز وإن أعماله كلها تميزت بطابع الذاتية والتحليق في فضاءات أثيرية ومثالية. فكان نتاجه خير ممثل للمدرسة الرومنسية تأسيسا على فلسفته في شمولية الكون وخلود الروح والتناسخ وبعض النزعات الصوفية والتوغل في الذات والكون. من أجمل الرموز التي وظفها جبران في نصوصه بجانب الطبيعة والغاب هو الليل. فجبران انطلاقا من الاعتماد على فلسفته القريبة من الصوفية وتلك المبادئ وظّف الأسطورة والماضي في الليل لإعطاء فلسفته قيمة أدبية وقد وفّق في ذلك تماما فالحب اكتسب جمالا وروعة وشعرية وقدسية في توظيف دلالة الليل له وكذلك بالنسبة للتاريخ والأساطير.

أخذ البحث على عاتقه أن يستكشف دلالة الطبيعة والليل ويوظفهما في نصوصه بغية استجلاء ما فيهما من إيحاءات وثراء إما ممتزجة بأرقى وأسمى العواطف والأحاسيس أي الحب الشامل والكوني وتبيين الإيحاءات الجمالية فيه وإما عن طريق استدعاء الأشباح والأساطير(عشتروت وأبي الهول) وتوصل بأنّ الليل قابل لأكثر من دلالة في قاموس جبران فهو يوحي بامتزاج وانصهار في الماضي واستدعائه واستحضار للأرواح والأشباح والأقانيم الثلاث (الحب والحرية والتمرد) مخترقا الأزمنة والأمكنة كاشفا عن خلود النفس وأبديتها معتمدا على المنهج الوصفي ـــ التحليلي.

**الكلمات الدليلية** : الرومنسية، الليل، الرمزية، جبران، الأدب.

---

* - تاريخ الوصول: ٩٤/٠٣/١٠ تاريخ القبول:٩٤/١٠/٢٩
عنوان بريدالكاتب الإلكترونى : s.fathi.d@ut.ac.ir

**مقدمة**

يعتبر الأدب المهجري خاصة الأدب الجبراني أدبا رومنطيقيا باعتباره متمحورا على الذات مرتميا ذاته في أحضان الطبيعة مندمجا فيها نازعا نزعة تحررية في الحياة متمردا على القيود البالية مندفعا إلى بناء مجتمع مثالي طالبا الخير والسعادة لكل الإنسانية ولكنّنا لانراه خاليا من سمات المذهب الرمزي الذي اتخذ الإبهام والضبابية والغموض في الصورة الشعرية والتأكيد على الموسيقى الشعرية والتراسل في الحواس وامتزاجها معا وسيلة لخلق حالة نفسية في جو القصيدة. ففي الحقيقة خرج الأدب الرمزي من صلب المذهب الرومنطيقي « وجدت الرمزية العربية بذورها الأولى في الرومنسية المهجرية وزعيم مدرسة المهجر ولا شك جبران. إنّه تأثر في أدبه وفنه التصويري ب«وليم بليك» الشاعر الرسام الإنجليزي الذي كان ينحو منحى صوفيا رمزيا وفي كتاباته ظهرت الرمزية للمرة الأولى في الأدب العربي الحديث مختلطة بنزعة رومنتيكية تخييلية.» (أدهم،١٩٥٢ م: ٣٠). وهكذا تأثر المهجريون تأثرا بالغا وكبيرا بالمثل الأفلاطونية التي تمظهرت في إيمانهم بوحدة الوجود والنظرة الشمولية للحياة والكون فأفرز إيحاءات ودلالات غامضة وأثيرية في آثارهم خاصة آثار جبران خليل جبران.

وكادت تطغى على الأدب الجبراني مسحة السمو باللغة والكلام إلى فضاءات حالمة وغلبة النزعة الصوفية عليها فتارة تكون في دلالته غامضة وتارة أخرى تقترب من الوضوح.« غنيت كتابات جبران بالعطاء الرمزي بتعداد أبعاد رموزه وتتنوع إيحاءاتها وهي تقترب حينا في دلالاتها وتذهب حينا في الإبهام أو تظل في ضبابية وما هو يتعمدها إنما لترد في كتابته كجزء بارز في تعبيره أو أدائه الفني.» (حطيط،١٩٨٧م: ٤٧٥).

إن جبران يكثر من استخدام الرموز منها: رمز«الغاب» الذي يوحي بالبساطة والسعادة و«المدينة» التي هي رمز للحياة المادية الغربية وفسادها و«الليل» الذي يوحي بالسمو والتحليق في فضاءات اللانهائية والأبدية مع الامتزاج بالطبيعة والحب واستدعاء الأساطير والأرواح وأشباح الماضي وكثير من الرموز الأخرى. جاء البحث ملقيا الضوء على رمز الليل ودلالاته الإيحائية عند جبران وتبيين امتزاجه بالحب والطبيعة وتمازجه بالأساطير وأشباح الماضي بغية الكشف عن دلالاته والوصول إلى عمق الفكر الجبراني ونظرته الشمولية في الكون والحياة وفلسفته وصوفيته. مجيبا على هذا السوال الذي يضرب في صميم البحث: ما مدى إيحاءات الليل ودلالاته في الأدب الجبراني وكيف استطاع جبران أن يجعل من دلالة واحدة كالليل إيحاءات متعددة ومتشعبة تارة ممتزجة بالحب وتارة بالطبيعة وتارة أخرى بالماضي والأشباح والأساطير ؟ عالج المقال الرمزية في أدب جبران رغم الدراسات المستفيضة

عن حياته وأدبه فضلا عن ترجمة آثاره إلى لغات أخرى، لكن قلّما توجد أبحاث تتناول الجانب الرمزي في نتاجه وأصبح هذا الجانب مغفولاً عنه. هناك مقال وحيد عالج هذا الجانب في آثار جبران وهو « الرمز والأسطورة في آثار جبران» لسردار أصلاني ( ١٣٩١ه ش) في فصلية اللسان المبين، العدد العاشر. والمفارقة بين بحثنا وذلك المقال تكمن في معالجتنا رمزية الليل وتبيين جمالياته وانطوائه على دلالات عدة من ضمنها الأسطورة، بينما جاء ذلك المقال مكرسا بحثه على ذكر الأسطورة ورمزيتها في آثار جبران فحسب و لم يتطرق إلى رمزية الليل ودلالته خاصة في توظيف جبران الليل للحب والحقائق الخالدة. فبناء على ذلك جاء البحث متسما بالجدة، متناولا رمزية الليل ودلالاته مبسطا تلك الدلالات مستشهدا بنصوصه.

**الطبيعة عند جبران**

جبران خليل جبران الكاتب والشاعر الشهير من مواليد عام ١٨٨٣م في قرية بشرّي بلبنان. كانت أسرته تعاني من الفقر والعوز وأبوه يهمّه مجالس الشرب والقهوة أكثر مما يهمه أسرته. وكانت أمه- وهي بنت لأحد الكهنة- ذات كمال وتقوى وقفت نفسها على أولادها الأربعة مما دفعها إلى أن تتجه مع الأولاد إلى مدينة بوسطن في حين كان جبران في الثانية عشرة من عمره. فاجأت المصائب جبران في عامين متواليين أي ١٩٠٢م و١٩٠٣م بموت أخته الصغرى وأمه الحنون وأخيه الأكبر مما سبب في أن يتكون في نفسه عمق من الحزن والكآبة ورافقته هذه النفسية سنين طويلة، إلى أن تعرفت ماري هاسكل على عبقريته فأرسلته علي نفقتها إلى باريس لمتابعة دروسه الفنية عام ١٩٠٨م وهناك تلمذ للرسام الفرنسي والنحات الشهير «رودان» ثم تعرف على الشاعر والرسام الانجليزي «وليم بليك» وقد أثر فيه تعلقه الشديد بعالم الروح وميله الشديد إلى التأمل والتفكر وأعجب جبران شديدا بحياته العائلية الهادئة وكان جبران يتمنى لو كانت له مثل هذه الحياة المثالية.

وبعد رجوعه إلى بوسطن سافر إلى نيويورك عام ١٩١٢ وسكن في بيت متواضع في حي قديم يقطنه أصحاب الفن وقد أطلق أصدقاؤه اسم «الصومعة» على هذا البيت. عندئذ بدأ جبران مرحلة جديدة من حياته حيث كانت مرحلة التأمل والتفكر والفلسفة ولاسيما بعد ما تعرف على «نيتشه» وكتابه «هكذا تكلم زرادشت» حيث أثر عميقا في رؤيته تجاه الحياة (الفاخوري، ١٩٨٦م، ٢٢٠) وفي عام ١٩٢٠م تأسست «الرابطة القلمية» في المهجر الشمالي وعيّن جبران زعيمها الذي انتخبه الأعضاء بالإجماع وبدأ جبران يشعر بالمجد والعظمة اللذين كان يحلم بهما منذ طفولته. كان لجبران عدد من المؤلفات أهمها هو الذي شهّره ورفعه إلى أسمى درجات الكتاب والمؤلفين ألا وهو كتاب «النبي» الذي أصدره بالإنجليزية عام ١٩٢٣م.

إن للطبيعة مكانة سامية في قلوب الشعراء فهي الأم الرؤوم والحنون التي تفتح نوافذ الذوق والفن في قرائحهم وتجود بمواهب الإلهام والوحي على مداركهم تارة يصفونها كما هي في الواقع ويحاكونها وتارة يجسدونها تجسيدا ممزوجا بذواتهم ووجدانهم ملقين أحاسيسهم ومشاعرهم عليها «فعلي هذا النحو من التشخيص الحي للطبيعة، المتّجه إلى ما وراء المشاهد المنظورة من الوجود المعنوي والمعتمد على يقظة الروح والتجاوب الوجداني والمشاركة الشعورية كان أدب الطبيعة في المهجر.» ( حسن، ١٩٨٥م: ٢٤٢)

إنّ هذا التوغل العميق والتأمل في الكون خاصة في الطبيعة ونشدانهم العالم المثالي حدا بهم إلى التمرد والثورة على الحياة المادية المتمثلة في المدينة والدعوة إلى الحياة الطبيعية التي رمزوا إليها ب(الغاب) إنّه هو العالم المنشود المثالي والجنة التي تحقق الوحدة والسعادة، حياة الحرية والبساطة حيث لايكون فيه حزن ولا همّ ولاعدل ولارقيب ولاقبور أي تنعدم فيه الثنائيات ويمّحي الشر والظلم وتسود العدالة الآبدة.

وقد أفاض جبران في وصف الغاب في «مواكبه» حينما أنشد:

ليس في الغابات حزن  لا ولا فيها الهموم

(جبران، دت : ٣٥٤)

ليس في الغابات عذل  لا ولا فيها الرقيب

(المصدر نفسه : ٣٥٥)

ليس في الغابات موت  لا ولا فيها القبور

(المصدر نفسه : ٣٦٢)

تمكنت الطبيعة بالتوغل وطول التأمل عند الشعراء الرومنطيقيين خاصة جبران، تمكنت أن تصبح رمزا لآمالهم وأفكارهم وعالمهم المنشود ويوطوبيا أحلامهم التي طالما ينشدونها في أشعارهم إنّها« أصبحت عنوان الحياة المثلى ... وعنوان الحياة الشاملة التي تطعم ذاتها من ذاتها فلا موت الحمل عندها مأتم ولا غذاء الذئب وليمة.» (الناعوري، دت: ٩٥ )

إن جبران مغرم بالطبيعة شأنه شأن الرومنسيين ومنصهر في بوتقتها. يذوب ويحلّ فيها فهو يصبح جزءا منها يبث شعوره فيها ويتحد معها.« لإنّ الرومنسيين تنهمر التجارب والمشاعر من ذواتهم وتحلّ في مظاهر الطبيعة.» (الحاوي، ١٩٨٠م : ٣٢). لذلك نلاحظ أن الطبيعة والغاب تمتزج بأفكار جبران الفلسفية والتأملية فحينئذ تصبح رمزا للخلود ووحدة الوجود. وأعلى جبران من شأن الطبيعة ووظفها لتلك الأفكار وقد أحلّها في مظاهر الوجود منشدا في ذلك يخاطب الطبيعة:

هل اتخذت الغـــاب مثلـي مـــترلا دون القصور؟
فـــــتتبـعـــت الســـواقي وتسلقت الصـــخور؟
هـــــــل تحمّمت بعـــطر وتنـــشقـــــت بنور؟
وشـــربت الفجـــــــر خمراً في كؤوس مـــن أثير؟

(جبران،دت : ٣٦٣)

وفي خضم هذه الأحاسيس الوجدانيـــة والنزعـــات الصـــوفية تمتـــزج الطبيعـــة بالإنســـان كالخمر والنور وما هذا الإنسان إلا ذات جبران الذي شرب من خمـــرة الفجـــر فســـكر واستنشـــق النور واستحمّ بالعطور، أي بلغ إلى درجة الفناء والذروة القصوى في الاتحـــاد مـــع الكـــون. اتخـــذ جبران الغاب مترلا له دون المدينة وقد عاش فيه حياة طبيعيـــة يتـــابع في تلـــك الحيـــاة الســـواقي ويتسلق الجبال والصخور. انّه منصهر في الطبيعة يريد إحلالهـــا في نفســـه بشـــربها كـــالخمرة لكـــي تسري في ذاته وتصبح جزءا من الأثير ومن الكون. فهي روحه وذاته كمـــا قـــال عبـــاس نجـــم: « الغاب رمزا أدق وأصدق في التعبير عن روح جبران.» (نجـــم، ١٩٨٢م: ٧٥). لمســـنا هـــذا الحـــب العارم للطبيعة. فتذوب ذات الشاعر في الكون فهي تـــارة نغمـــة وتـــارة موجـــة في نهـــر وأخـــرى أريجا أو نسمة أو محلقا في النجوم البعيدة وما هـــذه الأناشـــيد إلا صـــدى لتلـــك الانصـــهارات في بوتقة الطبيعة وبما أن الليل هو جزء من الطبيعة ومن أجمل الرموز وأكثرهـــا كثافـــة ودلالـــة حيـــث الانعتاق والتحرر من سجن المادة والانطلاق نحو الفضـــاءات الأثيريـــة يتطـــرق البحـــث إلى هـــذا الرمز وتبيين دلالاته عند جبران.

## رمزية الليل في الأدب الجبراني

إن المراد بالرمزية في الأدب هو التعبير الغير مباشـــر عـــن الخلجانـــات النفســـية الكامنـــة الـــتي لا يستطيع المنشيء أن يعبر عنها تعبيرا مباشرا فالرمز هو الرابطة الـــتي تصـــل بـــين الـــنفس الانســـانيه وبين الأشياء الخارجة وفيه تنضـــب المشـــاعر الـــتي تجـــيش في الـــنفس ويعســـر التصـــريح هـــا. (هدارة،١٩٩٠م:٢٦٤ ) أو «الميل الواضح على استخدام لغـــة ذات مضـــامين تحـــوي في الغالـــب نبرة تكريس روحي وتوهج صوفي.» ( الجيوســـي،٢٠٠٧م : ٧٣٠) وهـــذا أنســـب تعريـــف لمـــا نحن بصدد تناوله في النص الجبراني للكثافة الدلالية والإيحـــاءات الموجـــودة في رمـــز الليـــل. يحتـــلّ الليل في الأدب مكانة مهمة لما ينطوي على دلالات وإيحاءات متعـــددة فهـــو تـــارة باعـــث علـــى الشقاء والألم والأرق والفراق وتـــارة ملـــهم ومـــوح وملقّـــن بـــائح بأســـرار الحيـــاة والكـــون ومستحضر الأحداث الماضية نافخ فيها الـــروح والحيويـــة ممتـــزج بالحـــب والطبيعـــة والأســـاطير

والأرواح والأشباح. فالليل في قاموس جبرا ن احتوى على تلك الدلالات إنه رمز غني قابل لأكثر من قراءة يعكس ثراءه الدلالي والفني طبقا لمواقفه وانفعالاته وأحاسيسه لأنّ الليل بسكينته وهدوءه يسمح للذات الداخلية بأن تستيقظ ولكوامن الشاعر أن تبرز وتطفوعلى السطح مهما كانت خافية. فلذلك نرى ثمة علاقة وطيدة بين الليل والحقائق المستوحاة منه فها هو جبران مازجا الليل بالحب والطبيعة مستدعيا الماضي من أرواح وأشباح هامسة بحقائق وأسرار. فبما أنه كان ينحى منحى صوفيا مسيحيا في الأدب وكان متبنيا لفكرة وحدة الوجود والتقمص والحب الإلهي والشمولي والاتحاد والفناء في الله حسب ما قال عنه الدكتور صابر عبدالدايم:« إن أدب جبران أدب تأملي فهو كسائر الشعراء الصوفيين وقفوا حياتهم على التأمل وجعلوا من حب الإله فلسفة خاصة ووضعوا لها رموزا تربطها بحياة العاشقين وفي أشعارهم عبروا عن فلسفتهم في وحدة الوجود ونظرية التناسخ وفلسفة الحب الإلهي والاتحاد بالله والفناء فيه.» (عبدالدايم، ١٩٩٣م: ٥٢).نلاحظ أنّ تلك الأفكار شكلت الركيزة الأولى لكل كتاباته.

**أـ الأبدية والخلود**

إنّ جبران يغرق ذاته في الوجود ويندمج فيه وما الليل عنده إلاّ تجل ومظهر من مظاهر الوجود والكون فالليل بوابة إلى الأبدية واللانهائية وبالتالي امتزاج بالخلود ومعانقته.

إن الأدباء والشعراء خاصة الرومنطيقيين وعلى رأسهم جبران خليل جبران الذي يترع نزعة صوفية نحو الأدب لايرون في الليل وفي هدأته إلا« رحابا من الأجواء الخرساء المؤنسة التي تساعدهم على التفكير ولأنّه مليء بالأسرار ويمحو الحدود به فيرتفع ستار الأسرار عن النفس بالإشراق الروحي والأحلام. إنّ الليل معبر إلى اللانهاية وإنّ الحقائق الكبرى تتجلى في ظلمات الأحلام وفيه تطوف الأرواح وفيه تتحرك أشباح الخيال ... إذ تثور خواطرهم في هدأة الكون حين تبدو الظلمات مشوبة بأضواء شاحبة في طريقها إلى الفناء الذي يذكي الشعور بالموت ويفتح أمام الرومنطيقيين باب الأبدية لأنهم يعتقدون أنّ الحقائق الكبرى تتجلى في ظلمات الأحلام وما ظلمات الموت إلا فجر الخلود.» (هلال،دت : ٣٩ ) فهاهنا يصدح جبران بالليل مناجيا أرواحه وأشباحه معانقا سحره وأحلامه وآماله ومن ثم لانهائيته وأبديته قائلاً:

«أيها الليل! يا ليل الأشباح الأرواح والأخيلة! فكنت بهولك لي أباً وكنت بأحلامي لك ابناً فأبحت لي أسرارك ونياتك وأبنت لك أمانيّ وآمالي. لقد صحبتك أيها الليل حتى صرت شبيها بك وألفتك حتى تمازجت ميولي. وأحببتك حتى تحول وجداني إلى صورة مصغرة

لوجودك. أنا مثلك أيها الليل ! ليس لظلمتي بدء وليس لأعماقي نهاية. أنـا مثلـك أيهـا الليـل ! ولن يأتي صباحي حتي ينتهي أجلي.» ( جبران، دت م:ص٣٨٤)

إنّ الليل عند جبران حقل تمجع فيه الأشباح والأحلام وإنه ذلك الشبح الهائل الذي يبادله الأسرار. والعلاقة بين ذات الشاعر والليل في البداية علاقة أبدية خالدة كعلاقة الأب بابنه فالإنسان هو ابن الليل ومن جنسه ثم تتدرج العلاقة وتنمو حتى يصبح الليل الملهم والمعلم ثمّ بعد ذلك يتحّد ويذوب فيه فيصبح مماثلا له فيعانقه معانقة الأبدية فبالتالي يصبح كالليل سرمديا وأبديا. «الليل يمحو الحدود فيرتفع ستار الأسرار عن النفس بالإشراق الروحي والأحلام فالليل معبر إلى اللانهاية وهذه ناحية صوفية في أدب الرومنتيكيين.»(هلال، د ت: ١٥٨). نستشف عبق تلك الصوفية لتلك الأرواح السابحة في أثير الليل بخطابه: «أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي الأبدي.»(جبران،دت :٣٨٤). فبالتالي تنجلي الحقائق والأسرار لتلك الأرواح المحلقة.

إنّ فكرة الحلولية والاندماج في نهاية المطاف تقوده إلى فكرة وحدة الوجود وخلود النفس: « يا نفس إن قال الجهول: الروح كالجسم تزول وما يزول لا يعود.قولي له إن الزهور تمضي ولكن البذور تبقى وذا كنه الخلود.» (المصدر نفسه : ٥٩٨). ظهرت حقيقة الوجود وتجلت عنده في سكينة الليل إذ نراه يتحدث عن لسان وردة حول حقيقة الوجود:« إنني أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلي يقول إنّما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود. لقد عشت ساعة كملكة لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود وسمعت همس الأثير بآذان الورود ولمست ثنايا النور بأوراق الورود.أنا أموت الآن وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه وهذا هو القصد من الحياة هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيام والليالي.» (المصدر نفسه: ٤٨٦).

### ب ــ الكشف عن أسرار الحياة وحقائقها

إنّ الليل عند جبران يأخذ طابعا ومنحى صوفيا إنّه تجـل للحقـائق وانكشـاف للـذات وحلـول وامتزاج. «فهناك عالم هو عالم الأرواح عالم الروح الأكبر. إن أصحاب هـذا المعتقـد لا بـد لهـم من الحنين إلى هذا العالم المجهول وهذا الحنين إلى عالم الروح هـو منحـى مـن منـاحي الصـوفية ورغبة من رغباتهم.» (ديب،١٩٩٣م: ١١٨). جبران يجسـد تلـك الرغبـات والميـول الصـوفية والمثالية فنراه يخاطب الليل قائلا:

« أنت تفتح بصائرنا أمام هيبة اللا نهاية. أنـت هـدوء يبـيح بصـمته خفايـا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي.أنت ظـلام يرينـا أنـوار السـماء. فأنـت ملقـن الشـعراء والموحي إلى الأنبياء.» (جبران، دت: ٣٨٤). فـانطواء الليـل علـى إيحـاءات متعـددة خاصـة

الأسرار وما تتمثل تلك الإيحاءات باستحضار الأشباح والأرواح - كما أشير سلفا - هي السمة الأخرى لطبيعة الليل عند جبران. فالليل الجبراني مثير لكوامن الحياة وباعث على التفكير خاصة حينما يمتزج بعنصر آخر من الطبيعة وهو( البحر) الذي يرمز عند جبران إلى الخلود واللانهاية فهو كالليل مثير للغموض والإبهام وينتزع جبران من الليل الأشباح والأرواح ويستحضر منه الأقانيم الثلاث: الحب والحرية والتمرد حيث اعتبرها قوى سرمدية أبدية خالدة.

يربط جبران بين تلك الأقانيم وبين الليل الذي يعتقد أنه معبر إلى اللانهاية والخلود. إنّ انفتاح الليل على اللانهاية بمعنى أنّ الليل هو جنس من الأبدية ومنتم إلى الحقائق والمثل العليا. فالأشباح الثلاثة المستوحاة من صميم الليل المتغشية بالضباب تأتيه متحدثة عن حقائق الحياة مستجلية أسرارها. فالأولى تبوح بحقيقة الحب وتقرنه بحقيقة الحياة والجمال فالثانية تتحدث عن التمرد وتقرنه بالحياة والحق والثالث هي الحرية المقترنة بالفكر: «عند ما جنّ الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض تركت مضجعي وسرت نحو البحر بلغت الشاطئ وكان الضباب غمر تلك النواحي.. التفت فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر قريب وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم ... في تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة وقال: الحياة بغيرالحب كشجرة بغير أزهار والحب بدون جمال كأزهار بغير عطر الحياة والحب والجمال ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلة مطلقة لاتقبل التغيير ولا الانفصال. ثم انتصب الثاني: الحياة بغير التمرد كالفصول بغير ربيع والتمرد بغير حق كالربيع في الصحراء، والحياة والتمرد والحق ثلاثة أقانيم في ذات واحدة ... ثم انتصب الشبح الثالث وقال: الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح والحرية بغير الفكر كالروح المشوشة الحياة والحرية والفكر ثلاثة أقانيم في ذات واحدة أزلية لا تزول ولاتضمحل.» (المصدر نفسه : ٤١٦) تمخض عن حقيقة الحياة الحب والتمرد والحرية فوظفت الأشباح المتسترة بظلام الليل والضباب للبوح بتلك الأسرار فالليل البهيم والمظلم أصبح في قاموس جبران دلالة كاشفة عن أسمى وأرقى الحقائق والمثل. فالليل هو الطريق إلى الخلود والاتحاد بالأبدية واللانهاية فيه تبوح القلوب بأسرارها وتسبح الأرواح في فضاء أثيري فهو الملهم والملقن والموحي إنه بوابة الخلود. إنّ في ظلامه نور وما هذا النور إلا نور الحقيقة وانكشاف الذات والبصائر على سر الحياة. إنه آت من الأبدية بائحا بأسرار الكون والحياة.

نستخلص من قصة "حفار القبور" لجبران امتزاجا آخر لليل بالحقيقة وانكشافها. فمنتصف الليل هو الوقت الذي طالما انتقاه جبران للبوح بالأسرار والحقائق. تلهمه الأرواح

والأشباح بحقيقة الحياة والموت وأسرار الوجود والعدم وما هذا الإلهام إلا من وحي الليل وجبابرته فجاء على لسان الشبح الإقرار بتلك الحقائق: « أنا مجنون قوي أسير فتميد الأرض تحت قدمي وأقف فتقف معي مواكب النجوم ... وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل.» ( المصدر نفسه: ٣٧١). ثم تلهمه بعد بامتهان حفر القبور فتصف الأحياء الذين يرتعشون أمام عاصفة الحياة بالأموات: « اتخذ حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات ... فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم.» ( المصدر نفسه : ٣٦٨). فالحي الحقيقي هو الذي يسير مع العاصفة راكضا ولا يقف إلّا بوقوفها : « إنّ الميت يرتعش أمام العاصفة وأما الحي فيسير معها راكضا ولا يقف إلاّ بوقوفها.» ( المصدر نفسه : ٣٦٩). فهذا الشبح المحتجب بضباب الليل يتسم بالخلود والأزلية هو إله وكالليل أبدي وخالد:« ما اسمك ؟ أنا الإله المجنون وأين ولدت؟ في كل مكان ومتى ولدت ؟ في كل زمان.» (المصدر نفسه : ٣٧٠).فنلمس أن هذه الحقائق الخالدة جاءت على لسان الأشباح السرمدية المنبثقة من حقيقة الليل. فالليل موح بالأشباح والأشباح موحية بالحقيقة وكلاهما خالدان.

**ج ــ امتزاج الليل بالحب**

**اــ الحب الصوفي**

كانت لجبران منطلقات خاصة في مجالات مختلفة بما فيها الدين والشرائع السماوية، الإنسان والإنسانية، الحياة المثالية والموت، الأبدية والخلود، الحب والمحبة إلي غير ذلك من المواضيع والمفاهيم المتعلقة بالإنسان. وكانت الجمعية التيوصوفية قد تشكلت في أميركا منذ سنوات عندما عاد جبران إليها، ويميل المناخ الروحي هناك إلي التنوع والتعقيد والخروج علي التقاليد المسيحية، وبما أن جبران لم يكن يطيق هذه التقاليد والطقوس فلذا نزع إلي التيوصوفية ( أبي فاضل : ٥٣٩) لأنه وجد فيها غذاء لنزعته الصوفية ودعما لرسالته الإصلاحية ومنطلقا لعمله الاجتماعي. وتدّعي التيوصوفية أن معرفة الله تتحقق عن طريق معرفة الذات وبواسطة الوحي الذاتي، فتسمو بذلك الروحُ الإنسانية سموا تتحد في نهايته بالله فترفض التقاليد والأنظمة التي توارثتها الأجيال ولافرق عندها بين الأديان فالتيوصوفية تلتفت إلي قلب الإنسان تُخليه بالمحبة من كل ما يحول دون نمو التعاليم الإلهية وتجعله بصفاء المحبة مصدرا للإلهام والإشعاع الإشراقي (الفاخوري،١٩٨٦م : ٢٣٨).

يشبه هذا الإشراق والإلهام ما نجده في العرفان الإسلامي بينما لاندّعي أن جبران أو التيوصوفيين كانوا عرفاء بالمعنى الإسلامي إذ إن العارف المسلم يزكي نفسه ويطهر باطنه ويواظب علي الأحكام والشرائع الدينية ويتأمل ويفكر في حقائق الكون والوجود ويستعين بالله في كل هذا كما أن فكرة التناسخ والتقمص والحلولية التي يعتقدها جبران هي فكرة تتناقض تماما مع الصوفية الإسلامية.

إن الحب والليل في الأدب الجبراني مقرونان لايفترقان أبدا إذ نراه ينصهر في الحب ويذوب فيه إيمانا منه بفكرة وحدة الوجود وشمولية الكون ومن ثمّ الانصهار والذوبان في ذات الله إنّه متأثر بالفكر الصوفي المسيحي لذلك كثيرا ما يستخدم في آثاره الرموز الصوفية (الشمس، الناي، الحجاب) وأيضا عبارات العطش الروحي والسكر الروحي والحنين. إن هذه النزعة تكاد تطغى على كل أدبه وآثاره. يؤكد هذا الاستنتاج ما قاله أنطون كرم عن أدب جبران:« إذا كانت أعماله متونا لتصور أمين للمذهب الصوفي فهي على الأقل تأويل لمفاهيم الصوفية كما رآها بمنظور حساسيته الشعرية الخاصة.» ( نجار،٢٠٠٨م: ١٣٨). إنّ جبران يشاطر المتصوفة مفاهيم أحادية الوجود والاتحاد بالله إذ يغدو الله هو المحبوب والمعشوق الأبدي والسرمدي.«إنه يسمّي الله الذات الخفية أو الذات الكبرى أو غير المحدود ...إنّها صوفية تحلم بالاتصال بالله والاتحاد به وأشواق روحية إلى الملاء الأعلى والانفلات من عالم الحدود إلى عالم الكمال المطلق وشعور عميق بأنّ الله ملء نفوسهم وعقولهم وإحساس بغربة الروح.» ( حسن،١٩٨٥م:٣٩٥).

إن جبران رغم نزعته الصوفية في الأدب يعتبر الحب الدنيوي وسيلة لبلوغ الحب الإلهي والارتقاء والفناء في ذات الله فيقرن صورة الحب الدنيوي بصورة الحب الإلهي. فحينما يتكلم جبران عن الحب ويريد الإفصاح عنه لا يقع هذا الإفصاح إلا في الليل وظلماته. فالحب يرفرف كطائر بجناحيه عليه في سكينة الليل فيسهر مترقبا ما لايعرفه مصغيا إلى ما لايسمعه محدقا إلى ما لايراه. يبدي استغرابه عن تلك الأحاسيس التي تنتابه ليلا طالبا كشف السر الخفي الكامن خلف الدهور:« ما هذه الأجنحة التي ترفرف حول مضجعي في سكينة الليل فأسهر مترقبا ما لا أعرفه مصغيا إلى ما لاأسمعه محدقا إلى ما لاأراه مفكرا بما لاأفهمه شاعرا بما لاأدركه.» (جبران،دت : ٣٨٠).

إنّ سكون الليل يزفّ إليه هذه المعرفة العلوية ويكشف له الحجب والأسرار:« الحب معرفة علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما يراها الإله.» (المصدر نفسه : ٣٨٢). وفي مكان آخر نرى تماهي الحب في الليل وانصهار روح جبران فيه:« سأتخذ الحب سميرا وأسمعه منشدا وأشربه خمرا وألبسه ثوبا ... وفي الليل سيعانقني فأنام حالما بالعوالم العلوية حيث تقطن

أرواح العشاق والشعراء» (المصدرنفسه : ٢٠٤). نستشف أنّ جبران اتخذ من الحب مركبا لبلوغ العوالم العلوية وحلّ فيه إلى أقصى حد حيث أصبح الحب سميرا ومنشدا وحمرا وثوبا أي التصق بذاته التصاقا حميما وهو الذي يبلغه إلى العوالم العلوية حيث تقطن أرواح الشعراء والعشاق.

### ٢ــ الليل ولوعات الحب

كان حب جبران مشبوبا بنظرة إجلال وتهييب فللحب مكانة تضاهي القدسية لأنّه بنى للحبّ هيكلا يستوقف كل ناظر له متهيبا خاشعا فلاتستطيع النفس أن لاتخضع ولاتتخشع:« أية نفس لم تقف متهيبة في ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار والأحلام والعواطف؟» (المصدر نفسه : ٢٠٥). وبعد أن يجمع الليل المتحابين لا يكون هذا اللقاء إلا لقاء روحيا يسمو بسمو الحب ولاينم إلا في معبد أو هيكل أو في أحضان الطبيعة التي يقدسها الروح الرومنسية. حينما كان يلتقى جبران بحبه الأول ما كان ذلك إلا في معبد أو هيكل ونرى جبران يعاتب سلمى (حبه الأول) على مفارقتها له وعدم مجيئها إلى المعبد:« فقلت ما ذا يصدك عن المجيء إلى هذا المعبد والجلوس بجانبي أما م هيبة الله والأشباح؟» (المصدر نفسه : ٢٢٧). فالحب عنده يتميز بنكهة خاصة يتطبع بطابع الابتهال والنجوى والشكوى إلى الرب والمتحابان يكونان تحت رعاية الله وإشرافه ولا يلتقيان إلا وعلى شفتيهما ترنيمة أو نجوى أو شكوى للرب يشكيان له الحب ولوعاته. يلتقي جبران بحبه الأول ويكون ذلك اللقاء ليلا تحت السماء:« ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب ومدت يديها إلى الأمام وارتجفت شفتاها ثم صرخت قائلة: ما ذا فعلت المرأة يا رب ...أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه وبجسد رجل لاأعرفه.أسعفني ... لتكن مشيئتك يا رب وليكن اسمك مباركا إلى النهاية.»( المصدر نفسه : ٢٠٦) إنها تشكو لوعة الحب والفراق إلى الله تستنجد بالقوى العلوية على احتمال لوعاته. الحب هو العالم الروحي الذي يطوف فيه روح جبران وروح سلمى فهو اجتماع أرواح لا التقاء أجساد. في أغنية الليل نرى التماهي في أحضان الحب قد بلغ أقصاه فالليل وكل شي في الطبيعة حتى الأحلام تختبيء في سكون الليل ويكون الليل حينئذ مسرحا للمتحابين:« سكن الليل وفي ثوب السكون تختبيء الأحلام وسعى البدر وللبدر عيون ترصد الأيا م فتعالي ! يا ابنة الحقل نزر كرمة العشاق علّنا نطفي بذياك العصير حرقة الأشواق. اسمعي البلبل ما بين الحقول يسكب الألحان. في فضاء نفخت فيه التلول نسمة الريحان.لا تخافي!يا فتاتي! فالنجوم تكتم الأخبار وضباب الليل في تلك الكروم

يحجب الأسرا ر.لا تخافي!فعروس الجن في كهفها المسحور هجعت سكرى وكادت تختفي عن عيون الحور ومليك الجن إن مرّ يروح والهوى يثنيه فهو مثلي عاشق كيف يبوح بالذي يضنيه.» (المصدر نفسه : ٦٠٧).

### ٣ ــ الليل حافظ لأسرار الحب

وفي هذه الأغنية يتوشح الليل بالسكون والهدأة فكل شيء يلفّه الغموض والصمت وي كتنفه السر حتى النجوم لا تبوح بأسرار الليل الذي غمره الحب. فالحب سر من الأسرار فكل عناصر الليل تحفظ لليل سره وتكتم أخباره فلايستطيع أحد أن يطلع على الأسرار إلا إذا كان عاشقا. فعروس الجن ومليك الجن كلاهما قد خامرهما سكر الحب وهما يحفظان للحب أسراره والبلبل يغرد أناشيد الحب في فضاء مملوء بنسائم الريحان في حرية وكذلك الضباب يعين على حفظ الأسرار وحجبها. فالليل كما رأينا في هذه الأغنية يمتزج بعاطفة الحب التي تسري في النفس سريان السكر والخمور.فهو باعث على الطمأنينة والهدوء وساتر المتحابين وإن رصدهم عيون البدر لا ضير في ذلك. وهكذا يخاطب جبران الليل ويتجاوب معه ويستشف أسراره شاعرا نحوه بالألفة والأنس.« فالليل وما في ظلامه من الوحشة وما في أشباحه من الرهبة وما في سكينته من الأسرار هو أحب الرموز إلى جبران.»(سراج، ١٩٦٤م: ١٦٧).

### ٤ – شد الحب إلى الخلود

«إنّ المحبة التي تولد في أحضان اللانهاية وتهبط مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الألوهية.» (المصدر نفسه: ٢٣٠).هكذا عرف جبران الحب الحقيقي فإنّه سر من الأسرار التي هبط مع الليل، فالليل يشد الحب إلى اللانهاية إلى الخلود والأبدية وما الحب عند جبران إلا كالأحلام والعواطف خالدا. « فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد وقد تتوارى حينا وتهجع آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الليل وبالقمر عند مجيء الصباح.» (المصدر نفسه : ٥٠) وكثيرا ما يناجي المحب في معبد أو هيكل صادحا بنغمات الحب خاشعا متذللا:

«في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء الموحدة بين أرواح النيام وأحلام اللانهاية جاء ناتان ودخل هيكل عشتروت، رحماك يا ربة الحب والجمال ! من وراء ظلمة هذا الليل أستجير بحنانك. من هذه الأعماق أصرخ إليك يا عشتروت المقدسة ! قد أحببت صبية من بين الصبايا .... من أجل ذلك جئت إليك متذللا فارحميني ....» (جبران، دت : ٤٨).

يبتهل المحب، ابتهالات الحب أمام مذابح الآلهة ممزجا لوعاته بالليل مستنجدا بآلهة الحب والموت (عشتروت). فالحب والآلهه والهيكل والليل يشكل أهم عناصر النص عند جبران و في قاموسه.

«تصل علاقات الحب إلى ذروة المستويات الوجودية لتدخل في مناخ ما بعد وجودي تجاوز الحب الحدود الإنسانية والطبيعية ليرتبط بقوة علوية. ينتمي الحب إلى وجود عيني متغير (الإنساني والطبيعي) ثم يفرّ باستمرار من قيود هذا الوجود بغية معانقته الأزلية وبقدسيته يسلخ الحب المحب عن عالمه المتغير الفاني ليلحقه بعالم سرمدي أزلي إنّه يخرج عن كونه عاطفة إنسانية زائلة ليغدو إلهيا مشاركا في صفات الله، إن الحب صدى لنفس وذات جبران الذي توسل بالفرار من محدودية الحياة معانقة الأزل والخلود بالحب.» (حبيب،١٩٩٥م: ٩٠).

### دـ الليل والأساطير

«للأساطير في الشعر المعاصر دور في إبراز جمال التجربة الشعرية حيث تكسبها عمقا ورحابة وتضفي عليها سمة من الغموض المحبب الذي يعطي للمتلقي فرصة لتشغيل ذهنه ويفتح أمامه باب التخيل فيرى في التجربة ألوانا متعددة من الصور والمضامين... استوحى المهجريون من الأساطير بعض تجاربهم حيث يمتزج فيها الخيال المحلق بالواقع وتلتقي فيها الحقائق بالأساطير.» (عبدالدايم، ١٩٩٣م : ١٤٣).

انطلاقا من الإيمان بوحدة الوجود والحب الكوني الشامل عند جبران الذي يربط في أبديته حاضر الإنسان بماضيه نرى انهيار وتلاشي الفوارق والحواجز بين الأزمنة فحينئذ يتصل الماضي بالحاضر والمستقبل بالماضي على أساس أنها تعود إلى حقيقة واحدة وهي حقيقة وحدة الوجود. كثيرا ما تتداخل الأزمنة وتنبعث الأرواح والأساطير من مضجعها ومرقدها في صمت الليل ورهبته. إنّ الليل ينفث في الماضي الروح والحياة فيحيا وينتصب الماضي مخترقا الحاضر فلايكون هذا الانبعاث إلا في صورة استدعاء للأساطير ولايكون هذا الاستحضار إلاّ ممزوجا بالحب وقد آثر جبران أن يكون الليل هو الحاضن والمستوعب لتلك الأحداث ليكون بالغ التأثير والوقع في النفوس. إنّ الليل عند جبران موحٍ وكاشف للأسرار مستدع الماضي بأسطورة الحب عند البابليين (عشتروت). فلا يكون هذا الاستدعاء إلا في الظلمات التي تبلغ أقصى كثافتها في منتصف الليل.« فمنتصف الليل قمة الهدوء الذي يشبه العدم حتى ليبدو العالم وكأنّه صورة لما كان ولكنّه في الحقيقة ينبض بحياة مستسرة تزيده روعة ...إنهم يرحبون

بالظلمات وكما قال يانج عن الليل: مرحبا أيتها الظلمات! مرحبا أيتها الغابات العذراء حيث الدجنة الظلماء.» (هلال، دت :١٥٩).

هذه الكثافة الموحية تستدعي عند جبران رموزا أساطيريا تدور حول فكرة الموت والخلود ورغبة في الهرب لا من قيود المجتمع فحسب بل من العالم المحدود وتطلع إلى العالم الآخر إلى ما لايفنى. إن جبران اعتنق «فكرة التناسخ القائلة بأن الأرواح حين تفنى الأجساد تنتقل عبر الأجيال إلى أجساد أخرى وتدخل فيها ولهذا فإن الحوادث تتكرر عند أشخاص مختلفين وقد يتم الإنسان ما بدأه غيره منذ ألف عام. وهذه الفكرة هي التي دعت جبران خليل جبران إلى كتابة قصته «رماد الأجيال والنار الخالدة» فإنّ روحي «ناتان» وحبيبته التي ماتت وهام هو بعدها في البراري، قد تجسدتا في جسدي« علي الحسيني» وصاحبته التي عادت اليه بالرغم من وجود تسعة عشرقرنا من الزمان بين الحادثين وبالطبع حصلتا في نفس المكان من مدينة بعل (إله الشمس) وفي هذه القصة يقول جبران موضحا فكرته:« فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد وقد تتوارى حينا وتهجع آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الصباح.»( سراج،١٩٦٤م: ١٣٠).

وظف جبران أسطورة عشتروت (آلهة الحب) خير توظيف لفكرته في تناسخ الأرواح وذلك عبر حلول أرواح المتحابين قبل تسعة قرون في جسدي علي الحسيني وصاحبته:« انتصف الليل وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته فتعبت أجفان علي من أشباح اليقظة وكلّت عاقلته من مرور الأخيلة السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة ...فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنوية المفعمة بالأحلام المترفعة عن شرائع الإنسان واتسعت دوائر الرؤيا أمام عينيه وانبسطت له خفايا الأسرار. لأول مرة في حياته شعر علي الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهيكل عاطفة غريبة تولدت من خلايا حقيقة واحدة ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الأجيال. نظر"علي" نحو الهيكل المهدوم فظهرت بقايا المذبح واتضحت أماكن الأعمدة المرممة وأسس الجدران المتداعية...» (جبران، دت : ٥٢).

إنّ الماضي ليخترق الحاضر فالليل يبوح بأسرار الماضي لعلي الحسيني مزيلا الحواجز الزمنية جامعا بينه وبين أرواح الماضي سارحا به إلى الأزمنة الغابرة بلمحة واحدة. إن عاطفة الحب في النص تداخلت بالماضي والعصور في إطار زمني ومكاني متداخل ومتمازج.إنّ الفضاء والأمكنة عبر اندماجها بالليل الذي رمز اليه جبران بالتحرر والانطلاق من القيود والغور في عالم اللامحدود والأبدية أضفت ظلالا سحريا على الصورة الشعرية خاصة في ترداد الأفعال (ظهرت، اتضحت) إذ تلك الأفعال توحي بانبعاث الأمكنة وتلك الأفضية مرة أخرى

وكأننا أمام مشهد رسمه بريشته السحرية فبتأثير من فلسفة التقمص « تتلاشى عنده حدود الزمان والمكان والمسافات الفاصلة بين جزئيات الوجود فكل شيء ابن اللحظة. فليست هناك توقيتات معينة وإنّما في كل لحظة تتجمع الآزال والآباد.» (عبدالدايم،١٩٩٣م:٢٩١). فبعد أن حلت الأرواح الماضية في الأجساد الحاضرة نلاحظ أول ما نطقت به هو الحديث عن الحب والتصريح بتلكم الحقيقة أي خلود الروح وخلود الحب عبر الزمان والمكان وشموليته : «نظرت الصبية في سواد عيني علي وقد تلاعب النسيم بشعرها ... وشعرت بأنامل سحرية تداعب لسانها وشفتيها رغم إرادتها فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة: قد أعادت عشتروت روحينا إلى هذه الدنيا كيلا نحرم ملذات الحب.»(جبران،دت : ٥٧) كل هذا قد حصل في الليل «أحيانا يهرب جبران من نفسه إلى عالمه المنشود الذي يرمز له بالليل ويقول : عند ما ملت نفسي البشر وتعبت أجفاني من النظر إلى وجه النهار سرت إلى تلك الحقول حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة. هنالك وقفت أمام كائن أقتم مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية.» (عبدالدايم، ١٩٩٣م: ٣٤٠).

ونلاحظ أيضا امتزاج الليل الذي يحوي خفايا الحياة وأسرارها مرة أخرى بفلسفة التقمص عند هيكل الإلهة عشتروت ولكن في هذه المرة انتقلت روح الحكيم والشاعر البعلبكي في جسد شاعر آخر يحمل نفس الاسم ويكون شاعرا مثله لكن مصريا بعد مرور عشرة قرون وقد حصل التقمص في قصة «الشاعر البعلبكي» ليس عند الشاعر فحسب بل حصل عند الأمير والملك أيضا وقد حلت روحه في روح ملك آخر من المصريين:« في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد جلس الأمير على عرشه الذهبي وبعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من إنشادهم وتوارت أنفاسهم بين طيات أثواب الليل وقف كبير الوزراء أمام الأمير: قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد حتى تبلغ الكمال وتصير إلى مصاف الآلهة وقد جاء الليلة طالبا الدخول عليك ليبسط تعاليمه أمامك.»( جبران، دت : ٤٧٢).

إن جبران مزج فلسفته بالليل وفي الليل يدور الحديث حول خلود الروح والحب ولايكون الحديث عن فلسفة الانبعاث إلا ليلا في محضر الأمير ولاتكون أيضا خلسة الشاعر إلا في رواق هيكل عشتروت:« وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الأنبياء تلفت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ثم سأل قائلا: أين شاعرنا ؟ فقد مر زمن ول م نره ... ماذا حلّ به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ فقال أحد الكهان: قد رأيته منذ أسبوع جالسا في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين نحو الشفق البعيد كأنه أضاع بين الغيوم قصيدة من

قصائده.» (المصدرنفسه : ٤٧٣). مات الشاعر ودفن في ظلال هيكل عشتروت: «غدا نقبره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة.» (المصدرنفسه : ٤٧٤) والأمير سائل الحكيم الهندي:« هل ترجعني الآلهة أميرا إلى هذا العالم وتعيده شاعرا؟.» (المصدر نفسه : ٤٧٠). وبعد مرور القرون وبالتحديد سنة ١٩٢٢ لايكون التنبه لهذا الحلول الروحي إلا ليلا:« طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة وأمير البلاد جالس في شرفة قصره ينظر إلى الفضاء الصافي مفكرا بمآتي الأجيال التي مرت متتابعة على ضفاف النيل مستوضحا أعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا أمام هيبة أبي الهول....ولّما اتسعت دائرة أفكاره وانبسطت مسارح أحلامه ...قال: في نفسنا الليلة ميل إلى الشعر.. حدق الأمير إلى نديمه وقد استهوته نغمة تلك الأبيات ومعانيها ...ثم سأل قائلا لمن هذه الأبيات ؟ فأجاب النديم: للشاعر البعلبكي. فأعاد هذا الاسم القديم الجديد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسية وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة.» (المصدرنفسه: ٤٧٦). إن فكرة التناسخ والتقمص عند الشاعر البعلبكي تريد أن تبلغ الإنسان إلى الكمال وأن ترفعه إلى مصاف الآلهة حيث الخلود وفعلا تحققت أمنيته وأمنية الأمير معا بانبعاثهما ليلا على ضفاف نهر النيل وأمام هيبة أبي الهول. نلاحظ أن جبران مزج فكرة التقمص تارة أخرى بالأساطير ولكن هذه المرة ليس بعشتروت بل بأبي الهول حارس الأهرام.

هذا التوظيف الأساطيري في قالب قصصي تاريخي لفكرة التناسخ الفلسفية كان بحق موفيا لترسيخها في فكر المتلقي والقارئ لأعمال جبران. وكذلك في قصة «ملكة الخيال» نرى أيضا ما لليل من قوة في انبعاث أشباح الماضي عند خرائب تدمر التاريخية فبعد أن يبلغ الشاعر خرائب تدمر ويتأمل في مجدها الغابر في سكون الليل، فإذا بالأرض تميد والفضاء يهتز فيجد نفسه في رياض مصحوبا بجوق من العذارى فحينئذ تتداخل الأزمنة والأمكنة منسترة بسكينة الليل ومهابته في استحضار الأرواح والأشباح بين تلك الخرائب ذات دلالة تاريخية توظيفا لفكرة الانبعاث والخلود:« بلغت خرائب تدمر وقد نهكني السير فاستلقيت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلّها الدهر ...وصرت أتامل بعظائم أجلها وهي مهدومة منقوضة ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة شعرت بأنّ في الأثير المحيط بي سيالا يصارع البخور عطرا ويعادل الخمر فعلا فصرت أحس بأيد خفية تحلّ نفسي من سلاسلها ثمّ مادت الأرض واهتزّ الفضاء فوجدتني في رياض مصحوبا بجوق من العذارى ينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحب.» (المصدرنفسه : ٢٩٠).

فلا يخلو الانبعاث من الامتزاج بفكرة الحب والليل والأماكن الموحية والفواحة بعبق الماضي، وإنّ الليل بدلالته الموحية زاد في رهابة الموقف وعمّق الفكرة وأضفى جمالا سحريا على الصورة الشعرية في النصوص.

## النتائج

أفاد البحث النتائج التالية:

١ــ إن الليل قابل لأكثر من دلالة في قاموس جبران فهو يوحي بامتزاج وانصهار في الماضي واستدعائه واستحضار للأرواح والأشباح والأقانيم الثلاث (الحب والحرية والتمرد) مخترقا الأزمنة والأمكنة كاشفا عن خلود النفس وأبديتها.

٢ــ إن الحب يكشف عن أسمى الحقائق ففيه تتجلى وتنكشف الستائر والأسرار وتبوح الحقيقة بسرها المكنون لأنّ الليل هو نفسه من جنس الحقيقة فحقائق الكون والحياة والذات تتعرى أمام هيبته.انّه رغم ظلمته وغموضه ينطوي على الأسرار بائحا بها للمتحابين.

٣ - وظف جبران الطبيعة ورموزها خاصة الليل خدمة للتعريف بفلسفته الصوفية ورؤيته العقدية في الحياة من تناسخ وتقمص. فالأساطير (عشتروت، أبي الهول) تنبعث في الليل فتحيا فبذلك تتكرر حقيقة واحدة عبر الزمان والمكان فتحل في الأجساد متسترة بظلام الليل.

٤ - إن الليل كاتم أسرار الحب وكل رموزه ( البدر والسماء والغيوم) تتعاضد وتتعاون في التستر على أفعال المتحابين والعشاق. فبذلك تمتزج حقيقة الحب بالطبيعة والليل والأشباح والأرواح لتتصل بحقيقة خالدة أخرى وهي شمولية الحب وخلوده.

٧ــ إن الليل اخترق حجاب الخلود والأبدية وامتزج به وأصبح جزءا منه فبالتالي كل ما ينتمي إلي الليل في قاموس جبران يصبح كالليل خالدا سرمدبا.

## المصادر


١ــــ أبوفاضل،ربيعة بديع ( ١٩٩٢م)، **الفكر الديني في الأدب المهجري**، ج٢، ط١، بيروت، دار الجيل.

٢. أدهم،اسماعيل،(١٩٥٢م)، **توفيق الحكيم**، مصر: دار السعد.

٣ــ الحاوي، ايليا،(١٩٧٩م) **في النقد والأدب**،الجزء الرابع الطبعة الرابعة،بيروت:دار الكتاب اللبناني.

٤. حبيب، بطرس، ( ١٩٩٥م) **جدلية الحب والموت**،بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

٥ــ حطيط، كاظم،( ١٩٨٧م) **أعلام ورواد في الأدب العربي**، بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

٦. حسن،حسن جاد ( ١٩٨٥م) **الأدب العربي في المهجر**، قطر: دارقطري بن فجاءة.٧٦ــــ جبران، خليل جبران، دت، المجموعة الكاملة، بيروت: دار صادر.

٧. جبران، جبران خليل، دت، **المجموعة الكاملة**، بيروت : دار صادر.

٨ ــــ الجيوسي،سلمى خضراء، ( ٢٠٠٧م)، **الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث**،ترجمه عبد الواحد لؤلؤة، بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.

٩ ــ ديب، وديع،( ١٩٩٣م) **الشعر العربي في المهجر الأميركي**، بيروت:دار العلم للملايين.

١٠ــ سراج، نادرة، ( ١٩٦٤م)، **شعراء الرابطة القلمية**،مصر: دارالمعارف.

١١ــــ عباس، احسان، (١٩٨٢م) **الشعر العربي في المهجرأميركا الشمالية**، الطبعة الثالث،بيروت : دارصادر.

١٢ــ عبد الدايم، صابر، ( ١٩٩٣م) **أدب المهجر**، الطبعة الأولى،مصر: دارالمعارف

١٣ــ هلال، محمد غنيمي، دت، **الرومنتيكية**،القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشروالتوزيع.

١٤ــ الفاخوري، حنا، (١٩٨٦م)، **الجامع في تاريخ الأب العربي**، ج٢، ط١، بيروت، دار الجيل.

١٥.ناعوري، عيسى، دت،**أدب المهجر**، الطبعة الثانية، قاهرة: دارالمعارف

١٦ــ نجار، اسكندر، (٢٠٠٨م) **قاموس جبران**، الطبعة الأولى، دارالسياقي.

١٧ــ هدارة،محمد مصطفى،(١٩٩٠م) **دراسات في الأدب العربي الحديث**، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية.

**فصلنامهٔ لسان مبین(پژوهش ادب عربی)**
**(علمی – پژوهشی)**
**سال هفتم، دورهٔ جدید، شمارهٔ بیست و سوم ، بهار ۱۳۹۵**

# نماد شب در ادبیات جبران خلیل جبران*

**صادق فتحی دهکردی**، استادیار دانشگاه تهران، پردیس فارابی
**عبیر جادری**، دانشجوی دکتری دانشکاه تهران، پردیس فارابی

**چکیده**

بـدون شـک جبـران یکـی ازپیشـتازان مکتـب نمـادپردازی در ادبیـات عربـی بـه شـمار مـی رود هرچنـد آثـار وی ویژگیهـای مکتـب رمانتیسـم را داراسـت. شـب درقـاموس جبران،تقـدس وجایگـاه ویـژه ای دارد شـب از دیـدگاه جبـران افـق هـای زمـان ومکـان را درنوردیده،گذشـته وتـاریخ وآینـده را بـه هـم پیونـد مـی دهـد. ایـن نمـاد بـا توجـه بـه فلسـفه جهـان شـمولی وی وجـاودانگی روح واعتقـاد بـه تناسـخ ارواح وگـرایش ژرف صـوفیانه از زیبـاترین نمادهـای جبـران اسـت. در ایـن مقالـه سـعی بـر آن شـده اسـت کـه ایـن نمـاد بـا دلالتهـای متعـدد در آثـار ادبـی وی خـواه آمیختـه بـا عشـق جهـان شـمول مقـدس وخـواه در آمیختـه بـا أسـاطیر وخـدایان ( عشتروت ) و( ابـو الهـول ) وخـواه در آمیختـه بـا گرایشـات فلسـفی وصـوفیانه بـویزه أقانیم سـه گانـه وجـود( آزادی،عشـق،تمرد) مـورد بررسـی وواکـاوی قـرار گیـرد وبـا درنوردیـدن زمـان ومکـان بـه بیـان جـاودانگی وابـدیت نفـس بپـردازد.روش ایـن پژوهش روشی تحلیلی ـ توصیفی است.

**کلمات کلیدی:** شب، نمادپردازی، جبران، ادبیات، رمانتیسم

---

* – تاریخ دریافت: ۹۴/۰۳/۱۰ تاریخ پذیرش نهائی: ۹۴/۱۰/۲۹
نشانی پست الکترونیکی نویسنده: s.fathi.d@ut.ac.ir